الفصل الثالث

جوانب أبي الفرج الأصبهاني

١ ـ آثار أبي الفرج الأصبهاني

يتبين لنا من اختلاف الأساتذة الذين تخرج عليهم أبو الفرج الأصبهاني اختلاف الموضوعات التي عالجها ، وقد نستطيع أن ندرك اتساع الآفاق التي جال فيها إذا أضفنا إلى هؤلاء الأساتذة كثرة الكتب التي كان يطالعها ، فقد مرّ بنا أنه كان يدخل سوق الوراقين وهي عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب فيشترى شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته . والظاهر أن الرجل كان له ميل خاص إلى تتبع أنساب القبائل وأخبارها ، وإلى تتبع أخبار المجتمع كأخبار القيان والخمارين والخمارات والغلمان المغنين والحانات وكل ما له صلة باللهو وأشكاله ولا سيما لهو الخلفاء والوزراء والعمال ، وقد بحث في تصانيفه عن الشعر والأغاني ؛ أما الشعر فقد جمع منه دواوين أبي نواس وأبي تمام والبحترى ، ولم تخف آثار هذه الثقافة على المتقدمين فقد أشادوا في كلامهم عليه بتصنيفه وأدبه وشعره ، وعالي روايته وحسن درايته ، وأخباره وآثاره ، وأحاديثه المسندة وعلمه بأيام الناس والأنساب ، وحفظه للغة والنحو والمغازى والسير والخرافات ، ومعرفته من آلة المنادمة بشيء كثير مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والأشربة ؛ وقد ظهرت آثار هذه الثقافة المديدة على تصانيفه التي صنفها ، روى منها ياقوت في « معجم الأدباء » طائفة كبيرة لا بأس بذكرها في هذا المقام ليكون للقارئ رأى في الموضوعات التي عالجها أبو الفرج :

« قال ياقوت : وتصانيفه كثيرة وهذا الذى يحضرني منها : كتاب الأغاني الكبير ، كتاب مجرد الأغاني ، كتاب التعديل والانتصاف في أخبار القبائل وأنسابها لم أره وبودى لو رأيته ذكره هو في كتاب الأغاني ، كتاب مقاتل

الطالبيين ، كتاب أخبار القيان ، كتاب الإماء الشواعر ، كتاب المماليك الشعراء ، كتاب أدب الغرباء ، كتاب الديارات ، كتاب تفضيل ذى الحجة ، كتاب الأخبار والنوادر ، كتاب أدب السماع ، كتاب أخبار الطفيليين ، كتاب مجموع الأخبار والآثار ، كتاب الخمارين والخمارات ، كتاب الفرق والمعيار فى الأوغاد والأحرار ، وهى رسالة عملها فى هارون بن المنجم ، كتاب دعوة النجار ، كتاب أخبار جحظة البرمكى ، كتاب جمهرة النسب ، كتاب نسب بنى عبد شمس ، كتاب نسب بنى شيبان ، كتاب نسب المهالبة ، كتاب نسب بنى تغلب ، كتاب الغلمان المغنين . كتاب الخصيان عمله للوزير المهلبى فى خصيين مغنيين كانا له . وله بعد تصانيف جياد فيما بلغنى كان يصنفها ويرسلها إلى المسئولين على بلاد المغرب من بنى أمية ، وكانوا يحسنون جائزته ، لم يعد منها إلى الشرق إلا القليل والله أعلم » .

إلا أنا لم نطلع على هذه الكتب كلها والذى اطلعنا عليه من آثاره بعض قصائد فى كتب التراجم وكتابه « مقاتل الطالبيين » وبعض فصول من كتابه أدب الغرباء : غير أن كتابه الخالد إنما هو كتاب الأغانى وعليه معتمدنا فى معرفة خصائص عبقريته .

إنا نأسف الأسف كله على أنه لم يقع إلينا كتابه « أدب الغرباء » بحذافيره فلم يصل إلينا إلا قليل من فصوله دوّنها ياقوت فى « معجم الأدباء » ؛ولو وقع إلينا الكتاب بأجمعه لاستطعنا أن نستخرج منه أشياء كثيرة تتعلق بأبى الفرج الأصبهانى ، فمن الفصل الذى أثبتته ياقوت تبينت لنا طائفة من أحوال أبى الفرج الخاصة .

وإذا لم يصل إلينا من كتاب « أدب الغرباء » الشىء الكثير فقد وصل إلينا من شعر أبى الفرج الأصبهانى ما يجعلنا ندرك منزلة هذا الشعر ، فقد أشار أكثر أصحاب التراجم إلى شاعرية أبى الفرج وكان لكل واحد رأى خاص فيها ، فبعضهم قال إنه كان شاعراً ، وبعضهم قال إن له شعراً يجمع إتقان العلماء وإحسان ظرفاء الشعراء ، وفريق ذكر أنه كان شاعراً محسناً ، وفريق ذكر أن له شعراً جيداً ، إلا أنه فى الهجاء أجود ، إلى آخر هذه الأحكام .

٢ ـ أبو الفرج الأصبهانى الشاعر

عالج أبو الفرج الأصبهانى الشعر فى جملة ما عالجه وقد كانت آفاق الأدب على عهده وقبل أيامه مديدة ، فالأديب ينبغى له أن يحيط من كل شىء بطرف ، وعلى هذه الصورة تصدّى أبو الفرج للشعر .

مال فى بعض شعره إلى الصناعة اللفظية التى كانت شائعة فى عصره ، من ذلك قوله فى المهلبى :

ولمـــا انتجعنا عائدين بظله أعان وما عنّى ومنّى وما مَنّا

ولكنه لم يسترسل إلى هذا النحو من الشعر ، فكما غلب عليه الطبع فى النثر فقد غلب عليه الطبع فى الشعر . أما قولهم إن شعره فى الهجاء أجود فهو غير مستقيم من كل الوجوه ، فإن هجاءه يخلو من روح السخرية . ولكن الناحية التى برزّ فيها وجوّد إنما هى ناحية الوصف ، من ذلك رثاؤه لديك له ، فقد صور أبو الفرج الأصبهانى ديكه تصويراً واضحاً كاملاً بفضل عينه الشديدة فى الانتباه وفكره البعيد فى التعمق ، صوّره تصوير شاعر يعرف كيف يصور وكيف ينظر إلى الأشياء ، صوّر ألوانه ومشيته وبعض أجزائه وصوته وطيرانه وطعمه ، واشتملت صورته على كثير من التنسيق والترتيب ، فلم تدخل صورة الديك بعضها فى بعض ، ولا ركب بعضها بعضاً ، وأبو الفرج الأصبهانى رزق من محاسن اللغة والفن الشىء الكثير حتى كدنا نرى الديك يزهى بمحاسن ألوانه . وكدنا نرى خطرانه وميسانه ونسمع صياحه ، يصبّ أبو الفرج اللفظ فى مواضعه وينزله فى منازله ، وإلى هذا الوضوح فى اللغة والغنى فى الألفاظ المصورة نستطيع أن نضيف الصفات المحسوسة وخصب التشبيهات فى الشعر .

ومن ذلك وصفه للفأر والهر فهو وصّاف ماهر ، وفى كتاب الأغانى مواطن كثيرة تدل على براعته فى الوصف وعلى إتقانه لفنه ، ولم تعوزه هذه البراعة وهذا الإتقان فى شعره نفسه ، فإن عينه لا تغفل عن الألوان ، وأذنه لا تغفل عن الأصوات ، فكما يجد القارئ فى قصيدته فى رثاء الديك التى سنثبتها فى فصل

المختار من نماذج آثاره مصداق هذا كله ، فقد يجد فى قصيدته فى وصف الهر دليلاً على قدرته على تتبع دقائق الصفات والإمعان فيها ؛ ومن قرأ هذه القصيدة أحاط علمه بهذه القدرة فقد استوفى من صفات الفأر فى خمسة أبيات ما يعجز النثر عن أمثاله ؛ وكذلك كان استيفاؤه لصفات الهر ، وقد تجد فى دقة هذا الوصف روح ابن الرومى نفسه .

٣ ـ أبو الفرج الأصبهانى الناثر

ا ـ المؤرخ :

وإذا درجنا من أفق الشعر إلى أفق النثر شعرنا بعبقرية أبى الفرج الأصبهانى ، وأول كتبه التى شاهدناها كتاب « مقاتل الطالبيين » ، فقد شرع فيه وهو ابن تسع وعشرين سنة ، ذكر فى كتابه هذا جملاً من أخبار من قتل من ولد أبى طالب منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الوقت الذى ابتدأ فيه هذا الكتاب وهو فى جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وثلثمائة للهجرة ، ومن احتيل فى قتله منهم بسم سقيه وكان سبب وفاته ، ومن خاف السلطان وهرب منه فمات فى تواريه ، ومن ظفر به فحبس حتى هلك فى محبسه ، على السياقة لتواريخ مقاتل من قتل منهم ووفاة من توفى بهذه الأحوال لا على قدر مراتبهم فى الفضل والتقدم ؛ وقد اقتصر فى ذكر أخبارهم على من كان محمود الطريقة سديد المذهب ، لا من كان بخلاف ذلك أو عدل عن سبيل أهله ومذاهب أسلافه أو كان خروجه على سبيل عبث وإفساد ، وقد جمع فى كتابه ما لا يستغنى عن ذكره من أخبارهم وسيرهم ومقاتلهم وقصصهم .

سلك فى كتابه مسالك المحدثين وقد نجد فى بعض هذا الكتاب من وصف الهيئات ما نحتاج إلى مثله فى عصرنا هذا ، من ذلك وصف على بن أبى طالب :

« وكان عليه السلام أسمر مربوعاً ، وهو إلى القصر أقرب ، عظيم البطن ، دقيق الأصابع ، غليظ الذراعين ، خمش الساقين ، فى عينيه لين ، عظيم اللحية ، أصلع ، ناتئ الجبهة » .

ثم نجد طابع أبى الفرج فى كتاب « مقاتل الطالبيين » كما نجده فى كتاب الأغانى ، وأعنى بهذا الطابع الاقتصاد فى البيان ووضع الألفاظ فى مواضعها ووصف الأشياء بحقائق صفاتها ، من ذلك وصف محمد بن القاسم بن على :

« وما رأيت قط أشدّ اجتهاداً منه ، ولا أعفّ ، ولا أكثر ذكراً لله عز وجل مع شدة نفس واجتماع قلب ، ما ظهر منه جزع ولا انكسار ولا خضوع فى الشدائد التى مرت به ، وإنهم ما رأوه قط مازحاً ولا هازلاً ولا ضاحكاً إلا مرة واحـــدة » .

وكأنه لما وصف المهلبى فى الاقتصاد فى البيان فقال :

ويقتضب المعنى الكثير بلفظه ويأتى بما تحوى الطوامير فى سطر

أشار إلى نفسه فى هذا البيت .

نجد طابع الصدق فى رواياته على نحو ما نجد مثل ذلك فى كتاب الأغانى ، فإنه إذا نسخ شيئاً من الأخبار من بعض الكتب نبه على ذلك ولم ينسبه إلى نفسه . من ذلك ما قاله فى أخبار محمد بن القاسم بن على :

« أخبرنى بخبره أحمد بن عبد الله بن عمار عن محمد بن الأزهر ونسخت شيئاً من أخباره من كتاب أحمد بن الحارث الخراز » .

وكما نجد طابع الصدق فى كتابه فقد نجد فيه طابع التحقيق ، فقد نقل فى فصل خروج أبى السرايا[1] أخباراً عن جملة من المحدثين منهم : على بن محمد بن سليمان النوفلى ، ولما كان يشك فى على بن محمد فقد نبه على أسباب هذا الشك فقال :

« فربما ذكرت الشىء اليسير منها والمعنى الذى يحتاج إليه لأن على بن محمد كان يقول بالإمامة فيحمله التعصب لمذهبه على الحيف فيما يرويه ، ونسبه من روى خبره من أهل هذا المذهب إلى قبيح الأفعال ، وأكثر حكاياته فى ذلك بل سائرها عن أبيه ، موقوفاً عليه لا يتجاوزه ، وأبوه حينئذ مقيم بالبصرة لا يعلم بشىء من أخبار القوم إلا ما يسمعه من ألسنة العامة على سبيل الأراجيف

---

(١) « مقاتل الطالبيين » ص ٤١٨ .

والأباطيل فيسطره فى كتابه من غير علم طلباً لما شان القوم وقدح فيهم .

فاعتمدت على رواية من كان بعيداً عن فعله فى هذا » .

وقد يمر القارئ فى خلال الكتاب بطرائف من صدق المبادئ ، ولكن الكتاب كله ليس على نمط واحد ، ففى بعضه نقرأ الأخبار فنكاد نجد الحياة تستفيض فيها كلها سواء أكانت تتعلق ببراز أم بموت أم بطراز من المعيشة ، وفى بعضه نقرأ الأخبار وهى تمر بنا مر السحاب وذلك على مقدار شأن الأخبار التى يرويها وعظمة أصحابها وعظمتها نفسها .

ب — الراوية والقاص

إلا أن أثره الخالد على وجه الدهر إنما هو كتاب الأغانى . وإذا رجعنا إلى مقدمة هذا الكتاب وجدنا فيها الغاية من تأليفه ورأى صاحبه فى فائدته وطبيعته وصحة أخباره ونهجه فى تصنيفه والباعث على تأليفه والمشقة التى احتملها ، وقد نجد فى خاتمة المقدمة ما يدل على ورع المؤلف .

تدل المقدمة على أن أبا الفرج الأصبهانى جمع فى هذا الكتاب ما حضر ، وأمكنه جمعه من الأغانى العربية قديمها وحديثها ، ونسب كل ما ذكره منها إلى قائل شعره ، وصانع لحنه ، وطريقته من إيقاعه ، وإصبعه التى ينسب إليها من طريقته ، واشتراك — إن كان — بين المغنين ، وقد يتخلل هذا كله شىء كثير من الجد والهزل والآثار والأخبار والسير والأشعار المتصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة وقصص الملوك فى الجاهلية والخلفاء فى الإسلام .

هذا بعض ما جاءت الإشارة إليه فى مقدمة كتاب الأغانى ولكن الكتاب يشتمل على تراجم بعض الشعراء ، وعلى وصف هيئاتهم وملابسهم ومآكلهم ومشاربهم فى بعض الأحيان ، وعلى أخبار العامة فى مقادير عقولها وتدليسها ولغتها ومعتقداتها وتسلطها على الخاصة ، وعلى الكتاتيب حيث وصف لنا أين تعلم الناس ، وكيف كان المعلمون يعاملون طلابهم ويكافئون النابغين منهم ، وكيف كانت حياة الطلاب فى الكتاتيب ، وعلى الملاهى كيف كان الناس يقضون لهوهم ، وما هى أجناس شرابهم وأنواع زينتهم وهيئات جواريهم ، وعلى

دور الناس كيف كانت موائدهم وأوانيهم وفرشهم وثيابهم ، وعلى قصور الخلفاء كيف كان البناء فى الحجاز والشام والعراق ، وعلى أندية تلك العصور ومطاعمها وخاناتها وقصاصها ومصوريها ، وعلى عادات المتقدمين فى أفراحهم وأحزانهم وتقاليدهم ، وعلى حرية المرأة وثقافتها ، وعلى حرية الناس وعبوديتهم ، وعلى لهو الخلفاء وتبذيرهم ، وعلى مواكب الحج ، وأمثال هذه الموضوعات .

هذا ما عالجه أبو الفرج الأصبهانى من الموضوعات فى كتاب الأغانى ، والثابت أن أبا الفرج لم يقتصر على جمع ما حضره وأمكنه جمعه من الأغانى العربية ، وإنما دخل على الخلفاء والعمال قصورهم فى الليل ، فوصف كل ما اتصل به علمه فى هذه القصور ، وكشف الغطاء عن أنماط من الحياة لولا معرفتنا إياها لفاتنا كثير من تأريخنا ، حتى رأينا تلك الحياة بأعيننا وسمعنا أخبارها بآذاننا ولمسنا آثارها بأيدينا .

٤ ـ فن أبى الفرج الأصبهانى

سلك أبو الفرج فى كتاب الأغانى مسالك المحدثين فقد كان ينشئ الأخبار بألفاظه ، وإذا لم تكن الأخبار من إنشائه نبه على ذلك ، وقد كان يحرص فى هذه الأخبار أشد الحرص على براءة الذمة فيها ، وكان ينقد بعض الرواة الذين نقل الأخبار عنهم : ينبه على أباطيلهم ويحقق أخباره وأحاديثه ورواياته ، ويجرى فى هذا التحقيق على أساليب شتى أتيت على ذكرها فى كتاب : « دراسة الأغانى »[1] ، والمهم فى هذا كله أن أبا الفرج الأصبهانى أحاط بمفردات اللغة فانتخب منها ما يناسب غايته ومذهبه فى كتابه ، فقد أحكم فقه اللغة بحيث لا يكاد يستعمل اللفظ إلا فى مواضعه ، فأول عنصر من عناصر لغته تفقهه فى اللغة ؛ أما العنصر الثانى فإنا نجده فى سهولة لغته ، فهو يستعمل من الألفاظ والتراكيب ما لا يزال استعماله شائعاً حتى فى العامة ، فكثيراً ما نجد فى الأغانى أشباه هذه التراكيب : « هجم الشتاء عليه . . . على

---

(١) ص ٥٩

بختى أنا . . . استر علينا . . .» فإذا كان كتاب الأغانى خالداً فهو خالد لموضوعاته الجليلة وللغته التى خلقت لكل العصور .

لقد جارى أبو الفرج الأصبهانى عصره فى تطور اللغة ولم يجمد على حال من الأحوال فاشتق ألفاظاً جزلة المعانى ، من ذلك استعمال العرسيات فى بعض مواضع من كلامه ، فهذا اللفظ يدل على حالة اجتماعية خاصة لا يعبر عنها لفظ آخر ، إنه يدل على الأكل الذى يقدم فى الأعراس .

وهذه الحرية فى اللغة دفعته إلى حرية ثانية فى تسمية الأشياء بأسمائها ، فكثر فى كتاب الأغانى ما نسميه فى عصرنا الأدب المجرد ، وقد كان هذا الأدب المجرد كثيراً فى كتبنا القديمة .

هذه جملة من خصائص لغة أبى الفرج الأصبهانى فى كتاب الأغانى ، أما خصائص فنه فقد كان رأسها الوصف بكلمة واحدة بحيث يتم المعنى ، فهو يستطيع أن يصور حالة من حالات الإنسان بلفظ واحد ، من ذلك : « وأن تكون ضحكة للناس . . . وكان لبّاساً . . . وكان صيتاً . . . » فهو مقتصد فى التصوير ، وقد أوتى قدرة على أن يجعل بين الصفة وبين الموصوف صلة وثيقة ، فهو يستعمل الصفة التى تصلح للموصوف خاصة ولا تصلح لكل موصوف ، وقد نجد فى ألفاظه وصفاته تناسباً قويّاً بينها وبين معانيها وهذا سر العبقرية ، فإذا وصف حالة من حالات الغضب قال : « فتربّد وجهه وجحظت عيناه وهمّ بالوثوب » .

برع أبو الفرج فى تراجمه فإذا وصف رجلاً من الرجال نطقت ألفاظه من صدق الوصف ، كما برع فى تصوير الحركات والجلسات ، ولم يبرع فى وصف الحالات المادية وحدها ، وإنما برع فى وصف الحالات النفسية .

أما لغته الشعرية فلم يلجأ فيها إلا إلى الصور التى تقع عليها العين من ذلك قوله : « فخفق كما يخفق الطائر . . . فاضطرب اضطراب العصفور . . . فخيل إلىّ أن الشجرة تنطق . . . »

هذا من جهة ومن جهة ثانية فإنه جعل لكل مقام مقالاً ، وهذه القاعدة

رأس البلاغة ، فهو لم يرو أخباره على وتيرة واحدة وإنما جعل الكل خبر مقاماً خاصاً يروى ما يروى من الأخبار فيعطى كل معنى ما يستحقه من الألفاظ .

وإذا خرجنا من هذا الأفق إلى أفق أوسع وجدنا أبا الفرج الأصبهانى يجرى على هذه القواعد نفسها فى قصصه ورواياته .

هذه جملة من خصائص لغة أبى الفرج الأصبهانى وفنه فى كتاب الأغانى ، فأبرز صفة من صفات عبقريته إنما هى الطبع ، فإن هذه السنين الخمسين التى سلخها فى إنشاء كتاب الأغانى قد صقلت بيانه حتى أصبح أبو الفرج مطبوعاً على الكتابة لا يظهر على عبقريته أثر من آثار التكلف ، وإذا خلد كاتب لفطنته إلى روح الألفاظ وأسرارها ، ولصبه هذه الألفاظ فى قوالبها ، ولخفة لغته على القلوب والأفهام ، ولإرسال كلامه على سجيته دون شىء من التصنع واصفاً ما يذكره من الأشخاص والأشياء بحقائق الصفات ، وازناً كل صفة من هذه الصفات بموازينها دون شطط ولا سرف — إذا خلد كاتب لهذه الخصائص كلها فأبو الفرج الأصبهانى على رأس الخالدين .

تحليل قصة

عفو أمير [1]

ما هو موضوع النص الذى ندرسه؟ فإن أبا الفرج لا يعنون عادة موضوعاته .

فى أى نوع من الأنواع الأدبية عرض الموضوع ؟

فإذا كان الموضوع قد عرض فى قالب قصة فما هى خصائص هذه القصة ؟

هل كملت القصة ؟ وما معنى كمالها ؟ هل يشعر القارئ بعد الفراغ منها بحاجة إلى معرفة أشياء ثانية ؟

فإذا كانت القصة قد كملت فما هى أسباب هذا الكمال ؟ هل عرضت حوادثها فى صورة محسوسة ؟ وهل فسرت هذه الحوادث ؟

---

(١) طالع القصة فى الصفحة ٩٦ من باب المنتخبات .

ما هو نصيب هذه القصة من الوصف ؟

هل وصف الجيش ؟

هل وصف الحصن إلى آخر ذلك . . .

ما هو نصيبها من الصور ؟

هل تحتمل القصة الصغيرة صوراً كاملة طويلة ؟ هل تشتمل على صور قصيرة ؟

ما هى هذه الصور ؟

هل يمكن استنباط صور أبطال القصة من القصة نفسها ؟

١ — كلام الحصنى .

٢ — كلام الأمير .

* * *

كيف رتبت هذه القصة ؟

١ — العرض :

هل بسطت فى العرض أبطال القصة والظروف التى تمت فى خلالها الحوادث ؟

٢ — العقـــدة :

ما هى الحوادث فى هذه العقدة ؟

الخاتمة :

هل الخاتمة قصيرة أم هى طويلة ؟

لذة هذه القصة :

هل يشعر القارئ بلذتها من أول الأمر أم اللذة فيها كانت على سبيل التدريج ؟

* * *

لغة هذه القصة وأسلوبها :

ما هى خصائص هذه اللغة ؟ هل هى محسوسة أم مجردة ؟ ما هى

طبائع الألفاظ المجردة ؟ هل تجد تطوراً فى معانى بعض ألفاظ القصة بالنسبة إلى عصرنا ؟

أسلوبها :

هل العبارات مقطعة فيها ؟

ماهى خصائص العبارات المقطعة فى القصة ؟

الإيجاز
الحوار
} فى القصة

* * *

هذا ما نحاول كشفه على سبيل الإيجاز فى تفسيرنا لقطعة من كتاب الأغانى .

لا يعنون أبو الفرج موضوعاته عادة ، فالنص الذى ندرسه ونفسره قد يمكن أن يكون عنوانه « عفو أمير » ، وقد يمكن أن نجعل هذا العنوان : « المروءة » لأن فى معاملة عبد الله بن طاهر للحصنى أخلاقاً رفيعة تشتمل على شىء من الإنسانية ، ومن جملة معانى المروءة : الإنسانية ، وهى من الألفاظ العامة التى تختلف معانيها على اختلاف الأذهان التى تعيش فيها أو على اختلاف المواضع التى تستعمل فيها .

أفرغ أبو الفتح عفو هذا الأمير أو مروءته فى قالب قصة ، قد تكون صادقة أو قد يحتمل صدقها ، وقد توخّى فى رواية قصته وصف مخالفة عبد الله بن طاهر لمحمد بن يزيد الأموى الحصنى ، فالقصة من أولها إلى آخرها محورها هذه المخالفة . فكأن أبا الفرج يأخذ بيد القارىء من بدء القصة فينتقل به بين مواطنها ، فلا يزال به حتى ينبهه على كرم أخلاق عبد الله بن طاهر وعلى رقة شعوره وسعة حلمه وامتداد كرمه .

لا شك فى أن هذه القصة قصيرة ، ولكنها كاملة على الرغم من قصرها ، فإن القارئ لا يتردد فى موضع من مواضعها ، ولا يستوضح صاحبها أمراً من الأمور ، وإذا كان القارئ لا يتردد فيها ولا يستفهم فهذا يرجع إلى أن حوادثها قد عرضت فى أوضح معرض ، وكل حادثة منها مربوطة بعلتها وسببها .

فلماذا باعد الحصنى بناته وحرمه واستسلم بنفسه وبكل ما يملك ؟ لأنه من أهل بيت قد أسرع القتل فيهم ، وله بمن مضى أسوة ،ولأنه يثق بأن الرجل إذا قتله وأخذ ماله شفى غيظه ولم يتجاوز ذلك إلى الحرم ولا له فيهن أرب .

فهذا النمط من التسلسل المنطقى فى القصة قد جعل فيها وضوحاً يغنى عن كل استفهام واستيضاح .

أما نصيب القصة من الوصف فيكاد يكون لا أثر له ، فلا نجد فيها وصفاً للجيش أو للحصن أو لغير ذلك كوصف المنزل والأكل والشرب .

وقد يكون نصيبها من الصور أوفر ، على أن القصة القصيرة لا تحتمل صوراً كاملة ، وهذه طائفة من صورها :

١ — « فرأى بابه مفتوحاً ، ورآه جالساً مسترسلاً » . فهذا الاسترسال خط من خطوط صورة الحصنى ، على أن معنى هذه المادة غير واضح ، لأن الاسترسال فيه معنى الانبساط والاستئناس ، وما هو انبساط الحصنى فى مثل حالته أم ما هو استئناسه ؟

٢ — وهذه صورة ثانية :

« وعلمت أنى أخطأت خطيئة حملنى عليها نزق الشباب وغرة الحداثة » . فهذا النزق وهذه الغرّة يوضحان لنا صورة الحصنى لما أفرط فى سب عبد الله ابن طاهر ، وتجاوز الحد فى قبح الرد .

٣ — وهذه صورة ثالثة :

« فوالله ما اتقاه عبد الله إلا بدموعه تجرى على لحيته » . فهذه الدموع التى تجرى على اللحية إنما هى مظهر من مظاهر رقة الشعور .

على أنه لا مجال فى قصة صغيرة مثل هذه القصة إلى التعمق فى التصوير ، سواء أكان صاحبها يصور الهيئات أم كان يصور الأخلاق .

غير أننا على الرغم من اختصار الصور فى القصة نستطيع أن نستنبط صور طائفة من أبطالها من كلامهم نفسه .

فمن كلام الحصنى للأمير عبد الله بن طاهر :

« إن ما قلت لم يذهب علىّ ، ولكنى تأملت أمرى وعلمت أنى أخطأت خطيئة حملنى عليها نزق الشباب وغرة الحداثة » .

فإذا تأملنا هذا الكلام وجدنا فيه صورة رجل ندم على ما بدر منه ، ثم إذا تأملنا الكلام الذى بعده وهذا هو :

« فإنا أهلُ بيت قد أسرع القتل فينا ولى بمن مضى أسوة » . . . وجدنا فيه صورة رجل رابط الجأش ، قد أسلم أمره إلى الله تعالى وانتظر يومه غير هيّاب ولا وجل . . .

وكذلك إذا انتقلنا إلى كلام الأمير عبد الله بن طاهر فقد نجد فى قوله للحصنى :

« وقد أمّن الله تعالى روعتك ، وحقن دمك ، وصان حرمك ، وحرس نعمتك ، وعفا عن ذنبك » .

صورة رجل كريم الخلق ، يحسن إلى من أساء إليه ، ويبالغ فى الإحسان . وقد نرى هذه المبالغة فى قوله :

« وما تعجلت إليك وحدى إلا لتأمن من قبل هجوم الجيش ، ولئلا يخالط عفوى عنك روعة تلحقك » . . .

فإذا كانت القصة التى نفسرّها قليلة الصور فقد نستخرج من بعض كلام أبطالها طائفة من هذه الصور فيها وصف لأخلاقهم وطبائعهم .

أما وقد عرفنا هذا كله فقد لزمنا أن نعرف ترتيب القصة . . .

رتبت هذه القصة ترتيباً متقناً ، فقد اشتمل عرضها الوجيز على ذكر أبطال القصة وعلى ذكر الظروف التى ستتم فيها الحوادث . . .

بدأ أبو الفرج قصته بالإشارة إلى ما وقع فى الماضى بين عبد الله بن طاهر وبين محمد بن يزيد الأموى ، فقد قال الأول شعراً فخر فيه بمآثر أبيه وأهله ، وفخر بقتلهم الأمين ؛ وعارضه الثانى فأفرط فى السبّ وتجاوز الحد فى قبح الرد ، وتوسط بين القوم وبين بنى هاشم فأربى فى التوسط والتعصب .

فكان لا بدّ من هذه الإشارة الوجيزة فى توضيح السبب الذى من أجله

هرب الحصنى من عبد الله لما ولى مصر ورد إليه تدبير الشام . . .

ولما أشار هذه الإشارة أخذ يوضح بعض ظروف العمل ، فوصف ما فعله الحصنى فقال :

« فلما ولى عبد الله مصر وردّ إليه تدبير آمر الشام ، علم الحصنى أنه لا يفلت منه إن هرب ، ولا ينجز من يده حيث حل ، فثبت فى موضعه ، وأحرز حرمه ، وترك أمواله ودوابّه وكل ما كان يملكه فى موضعه ، وفتح باب حصنه وجلس عليه . . . »

فى هذا العرض البسيط وقفنا على بطلى القصة وعلى ظروف حوادثها . ولا شك فى أن هذه الحوادث قد اشتبكت بعد هذا العرض ، فكان فى اشتباكها بدء العقدة .

أيقتل الأمير عبد الله بن طاهر محمد بن يزيد أم يعفو عنه ؟ ! هذا هو السؤال الذى يلقيه القارئ على نفسه ، هذا هو الأمر الذى يشغل بال القارئ بعد أن عرف ما عرف مما كان بين الرجلين .

فى هذا الموطن من القصة نقف حائرين مضطربين لا نعرف عزم الأمير ولا الخاطر الذى خطر بباله . واللذة فى هذه الحيرة وفى هذا الاضطراب ، على شرط واحد ، أن لا يطول بنا الأمر وقد تمتد بنا الحيرة من عند قول أبى الفرج :

« فلما شارفنا بلده ، وكنا على أن نُصبّحه . . . . »

وتنتهى بنا عند قول ابن طاهر للحصنى :

« أتعرفنى ؟ قال : لا والله ، قال : أنا عبد الله بن طاهر . . . . »

أتنتهى الحيرة فى هذا المقطع ؟ كلا ، لا تنتهى الحيرة فيه ، وإنما تصير إلى مفاجأة ، فإنا نريد أن نعرف بعد قوله : « أنا عبد الله بن طاهر » ، ماذا فعل . . . .

ماذا فعل الأمير فى هذا الموقف ؟ ماذا فعل الأمير فى موقف كان فيه الحصنى بين الحياة والموت ؟ هذا أروع أجزاء القصة ، هذا هو الجزء من القطعة الذى تنكشف فيه حيرة القارئ ، ويهدأ فيه اضطرابه .

لم يشأ عبد الله بن طاهر بعد أن قال للحصنى : « أنا عبد الله بن طاهر » أن يقف عند هذا الكلام حرصاً على أمن الحصنى ، وتفادياً من اضطرابه فقال له :

« أمن الله تعالى روعتك ، وحقن دمك ، وصان حرمك ، وحرس نعمتك ، وعفا عن ذنبك » . فلما قال له هذا القول انحلت عقدة القصة ، وأخذ القارئ يتطلع إلى خاتمتها ، وقد انكشفت أخلاق عبد الله بن طاهر فى هذه الخاتمة الانكشاف كله ، وانكشف كرم هذه الأخلاق ، وأول مظهر من مظاهر هذا الكرم قوله :

« وما تعجلت إليك وحدى إلا لتأمن من قبل هجوم الجيش ، ولئلا يخالط عفوى عنك روعة تلحقك » .

وما وسع الحصنى بعد أن سمع هذا الكلام اللين إلا البكاء وإلا القيام وتقبيل رأس ابن طاهر .

لقد كان أبو الفرج يستطيع أن ينهى قصته فى آخر هذا الكلام الطيب الذى قاله عبد الله بن طاهر ، ولو فعل لتمت القصة ، ولكنه أتبع هذا الكلام بعتاب وبطعام وشراب ، ثم بإكرام ؛ فكأنه أراد من مبدأ القصة حتى منتهاها أن يأتى فى كل جزء من أجزائها بدليل على كرم أخلاق عبد الله بن طاهر .

ولا شك فى أن أبا الفرج قد روى قصته على شكل مستميل ، فإنه لم يفاجئ القارئ مفاجأة بعفو الأمير ومروءته من أول القصة ، وإنما استدرجه إلى ذلك استدراجاً حتى يبقى ميله إلى معرفة الخاتمة معلقاً .

لا بأس بعد هذا كله بأن ننظر فى خصائص لغة هذه القصة وأسلوبها .

تصور القطعة التى ندرسها أمراً روحانيًّا وهو العفو أو المروءة ، ولذلك نجد فيها بعض الألفاظ المجرّدة مثل : التدبير ، ونزق الشباب ، وغرة الحداثة ، أو مثل شئ غيظه ، وأمن روعتك ، وحقن دمك ، وغير ذلك ؛ فالألفاظ المحسوسة فيها قليلة جدًّا ، وذلك سببه أن الوصف فيها قليل ، والوصف هو الذى يستلزم الألفاظ المحسوسة التى تصور الأشياء فى حقائق صورها .

وقد نجد بين الألفاظ المجردة فى القطعة ما تحول معناه على الأيام مثل لفظ التدبير ، فإذا رجعنا إلى كتب اللغة للبحث عن معنى التدبير وجدنا فيها ما يلى : « التدبير ، النظر فى عاقبة الأمر كالتدبر ، ولكن هذه المادة فى العبارة التى استعملت فيها لها معنى يختلف عن معنى كتب اللغة ، إن معناها الحكم أو السياسة . من هذا يتبين لنا أن حياة الألفاظ فى مواضع استعمالها ، فإذا تقيدنا بمعنى التدبير المذكور فى كتب اللغة فنكاد لا نفهم معنى هذه المادة فى موضع استعمالها فى القصة ، فما معنى : « وردّ إليه النظر فى عاقبة أمر الشام» ليس فى هذا التفسير شىء من الخطأ ، لأن بين النظر فى عاقبة الأمر وبين سياسة هذا الأمر بعض العلة ، فمن جملة أمور السياسة النظر فى العواقب .

فهذا اللفظ « التدبير » ليس له حياة مستقلة ، وإنما استقلاله فى الموضع الذى يستعمل فيه ، ومعناه فى موضعه فى القصة « الحكم أو السياسة » ، وهكذا كانوا يفهمون هذه المادة فى عصر أبى الفرج ، فإنا نجد فى شعر المتنبى فى كافور : « يدبر الملك من مصر إلى عدن » ، أى يسوس الملك .

وكما تختلف معانى الألفاظ على اختلاف مواضع استعمالها ، فكذلك تختلف على اختلاف الأذهان التى تعيش فيها ، فالتدبير فى كل ذهن له معنى خاص ، فإذا كان فلان ضيق المعيشة وقلنا فيه : إنه يدبر حاله ، أطلقنا على التدبير فى هذا المكان معنى خاصاً فكأنا قلنا : إنه بما أوتيه من العقل يستطيع أن يتصرف فى عيشته حتى لا يظهر عليه أثر الضيق .

وكذلك تختلف معانى الألفاظ على اختلاف العصور ، فلا نقول فى هذا العصر : « وردّ إليه تدبير أمر الشام » ، وإنما نقول : وردّت إليه سياسة الشام ، أو وردّ إليه حكم الشام ، أو غير ذلك .

ولا شك فى أن اختلاف المعانى فى الألفاظ المجرّدة يجعل لهذه الألفاظ بعض الغموض ، وقد يقل الغموض عادة إذا لجأ الكاتب إلى استعارات أو تشبيهات أو مجازات تجعل الأمور محسوسة .

لم يلجأ أبو الفرج فى قصته إلى اللغة الشعرية ، وإنما لجأ إلى تقطيع عباراته ،

من هذا القبيل قوله : « لا يفلت منه إن هرب ، ولا ينجو من يده حيث حل . . فثبت فى موضعه،وأحرز حرمه ... » أو قوله : « أمّن الله روعتك ، وحقن دمك ، وصان حرمك ، وحرس نعمتك ، وعفا عن ذنبك . . . »

والأسلوب المقطع هو الذى يصلح للقصص الصغيرة أكثر من غيره ، إن فيه شيئاً من الخفة والسرعة لانراه فى العبارات المديدة التى يضم بعضها إلى بعض ويتصل بعضها ببعض .

على أنا نجد فى هذا الأسلوب المقطع تسلسلاً فى الأفكار متقناً . وذلك فى قول عبد الله بن طاهر : « وقد أمن الله روعتك ، وحقن دمك ، وصان حرمك ، وحرس نعمتك ، وعفا عن ذنبك . . . » فإذا دققنا فى كل عبارة من هذه العبارات وجدنا فيها ترتيباً روحانيًّا عربياً .

لما ثبت الحصنى فى موضعه ، وأحرز حرمه ، وترك أمواله ، ودوابه وكل ما كان يملكه فى موضعه ، جلس واسترسل . هكذا صوره أبو الفرج ؛ فلما نزل عنده الأمير عبد الله بن طاهر أحبّ أن يخرجه من حالته التى هو فيها إلى حال فيها الطمأنينة ، فقال له قبل كل شىء : « أمن الله روعتك » ، فخف قلق الحصنى ، ثم قال له : « وحقن دمك» ، فاطمأن إلى حياته ، ثم قال له : « وصان حرمك » فوثق ببقاء أهله ، ثم قال له : « وحرس نعمتك » فلم يخف على ماله ، ثم قال له : «وعفا عن ذنبك» ، فتحقق عنده أن العقوبة قد زالت. وهكذا نجد أن الطمأنينة قد عادت إليه بحسب حالاته النفسية التى كانت تقلقه وتشغل باله ، فلو قدمت عبارة من هذه العبارات على عبارة لاختل الترتيب .

ولا ينبغى لنا أن ننسى أن الإيجاز فى بعض مواضع هذه القصة والحوار قد زادا فى نفخ الروح فيها ، فالقصة على الإجمال منسجمة ، متناسقة وهذا سر محاسنها .